عنوان : خطبة الجمعة من جامع النافع بعنوان وقفة مع آية من كتاب الله تأمل في قوله تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة ...)

الحمد لله وسع كل شيء رحمة علماً ، لا إله إلا هو خضعت

الخلائق لعظمته،وسبحت الملائكة والرعد من خيفته

أحمده سبحانه وأشكره على

توابع آلائه وجلائل منته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته،

وأشهد أن سيدناونبينا محمداً

عبد الله ورسوله، خيرته من

بريته، ومصطفاه لرسالته،

صلى الله وسلم وبارك عليه

وعلى آله وأصحابه والتابعين

ومن تبعهم بإحسان وسار على

نهجه وطريقته،

أما بعد:

فاتقوا الله رحمكم الله، واعتبروا بمن مضى من قبلكم، عاجلهم

ريب المنون، وجاءهم ما كانوا

يوعدون، هم السابقون ونحن اللاحقون، سبقونا بمضي الآجال، وإنا على آثارهم تشتد بنا الرحال .

معشر المؤمنين: كتاب الله تعالى سلوة كل محزون , وترياق كل مهموم , وتثبيت لكل مضطرب , وطمأنينة لكل خائف .

وبين أيدينا حقيقة قرآنية إيمانيّة عظيمة أكدَ عليها ربنا جلّ وعلاَ في محكم التنزيل في آيات متعددة ومواضع مختلفة تؤكد تفرده وحده بالعطاء والمنع والبسط والقبض والهداية والإضلال .

إنها حقيقة توجب تعلّقَ القلوبُ به وحده لا شريك له، فتوقن أنّهُ سبحانه النافعُ الضّارُّ المعطي المانعُ القابض الباسط المقدّم المؤخّرُ على اليقين والتحقيق، وأنّ ما سواهُ ضعيفٌ ذليلٌ منقاد، ولا يمكنهُ معارضَةَ اللهِ أبدًا ولا ردَّ شيءٍ أرادَهُ سبحانه

و قضاه.

فأرعوا أسماعكم , وأحضروا قلوبكم لآية من تلك الآيات تدبراً وتذكراً , (وما يتذكر إلا من ينيب) .

قال عز من قائل: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم ﴾ [فاطر: ٢].

يالها من آية عظيمة ! تؤكد حقيقةً جليلة ! وتكشف عن ألطافٍ ربانية عجيبة .

في هذه الآية صورة من صور قدرة الله متى استقرت في القلب اطمأن وفوَّض أمره لله , وعلق قلبه به تعالى خالقاً ورازقاً ومدبراً , فعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

إنها آية تقطع القلب عن التعلق بأي قوة مهما بلغت, وتصله بالقوي المتين . وتوصد أمامه كل الأبواب فلا يبقى إلا بابه تعالى , وتغلق في وجهه كل طريق إلا طريق الله .

رحمة منه سبحانهُ فياضة لا ينقطع مددها, ولا ينتهي عددها ، فلا إله إلاّ الله!، ذَلَّتْ لِقُدْرَتِهِ الصِّعَاب، وانعقدت بِلُطْفِهِ الْأَسْبَاب، وَجَرَى بِقُدرَتِهِ الْقَضَاء، واتّسعَ بكلمته ضِيقُ الفضاء، ومَضَتْ عَلَى إِرَادَتِهِ الْأَشْيَاء. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

إنَّ رحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العدّ , ولا يحدها حدٌّ (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

ورحمة الله تتمثل في منعه تمثُلها في عطائه ، فلا ضيق مع رحمة الله ,ولو كان العبد في غياهب السجون ، أو في شعاب الهلاك . ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم ، وفي مراتع الرخاء . فمن أدركته رحمة الله تفجَّرت ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة في جنانه , وانفسحت نفسه , ومن أمسكت عنه دبَّت في نفسه ووجدانه عقارب القلق والتعب والكد والنصب .

إنّهُ تعالى يجيبُ الْمُضْطَرّ إِذَا دَعَاه، وَيكْشِفُ السُّوءَ، وَيغِيثُ الْمَكْرُوبَ، وَيشْفِي السَّقِيم، وَيغْنِي الْفَقِيرَ، وَيُطلِقُ الأسير، ويجبُرُ الْكَسِيرَ، ويعصِمُ الْخَائِفَ الْمُسْتَجِير، وَيرْحَمُ الصَّغِيرَ، وَ يُعِينُ الْكَبِيرَ، وَلَيْسَ دُونَهُ ظَهِير، وَلَا فَوْقَهُ قَدِير، وَهو الْعَلِيُّ الْكَبِير!.

هذا الفيض الرباني يُفتح مع ضيق الرزق وضيق العيش ، فلا تبتئس فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة . وهذا الفيض يُمسَك , مع تدفق الرزق وإقبال كل شيء فلا جدوى, وإنما هو الضنك والشقاء والحرج والبلاء!

المال والولد ، والصحة والقوة ، والجاه والسلطان . . تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان .

يبسط الله الرزق مع رحمته فإذا هو متاع طيب ورخاء؛ وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة . ويمسك رحمته ، فإذا هو مثار قلق وخوف ، وإذا هو مثار حسد وبغض ، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض ، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار .

ويمنح الله الذرية برحمته فإذا هم زينة الحياة ومصدر الفرح والمتعة ، ومضاعفةِ الأجر في الآخرة بالخلف الصالح (أو ولد صالح يدعو له).

ويمسك رحمته فتصبح الذرية مصدر بلاء ونكد وعنت وشقاء ، سهرٌ بالليل وتعبٌ بالنهار!

ويهب الله الصحة والقوة مع رحمته فإذا هي نعمة وحياة طيبة ، والتذاذ بالحياة .

ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوي ، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح ، ويدخر السوء ليوم الحساب!

والعلم الغزير . والعمر الطويل . والمقام الطيب . كلها تتغير وتتبدل من حال إلى حال . . مع الإمساك ومع الإرسال . . وقليل من العلم يثمر وينفع ، وقليل من العمر يبارك الله فيه . وزهيد من المتاع يجعل الله فيه السعادة .

ومن رحمة الله أن شعورك برحمته تعالى رحمة ! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك ، ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة . وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة . والعذاب كل العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها : { إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . }

ورحمة الله لا تَعِزُّ على طالب في أي مكان ولا في أي حال . وجدها إبراهيم عليه السلام في النار المحرقة (قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم), ووجدها يوسف عليه السلام في الجب العميق المظلم (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)كما وجدها في السجن (قال رب السجن أحبُ إليَّ مما يدعونني إليه) , ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت إذ نادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فأدركته رحمة الرحيم الرحمن (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) ويجدها المؤمنون عند الكرب والشدة إذا لجأوا إلى ربهم ولاذوا بجنابه (وكذلك ننج المؤمنين) , أدركت موسى عليه السلام رحمة الله وهو طفل مجرد من كل قوة مادية ومن كل حراسة إنسانية ، وقد ألقي في اليم ، كما وجدها في قصر عدوه فرعون (ولتصنع على عيني) .

وغمرت زكريا عليه السلام رحمةُ الله مع كِبَر سنه و عُقر زوجه، قال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ [مريم: ٢]، وقال تعالى: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ [مريم: ٧].

ونشر الله رحمته لأصحاب الكهف في الكهف حين افتقدها أهل القصور والدور (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا ءاتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً) . وقال بعضهم لبعض : { فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته },

وقد حفت رحمة الله تعالى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون آثارهما (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنَّ الله معنا) . . وهكذا يجد رحمة الله كل من آوى إلى الله يائساً من كل ما سواها .

أي طمأنينة؟ وأي سكينة يجدها المؤمن المتوكل على الله ؟ وأي ثبات يعيشه من رضي بالله رباً وخالقاً ورازقاً ومدبراً ؟

إنها آية ترسم للحياة صوراً مشرقة؛ وتنشئ في القلب قيماً للحياة ثابتة؛ وموازين مستقرة لا تهتز ولا تتأثر بالمؤثرات كلها . ذهبت أم جاءت . كبرت أم صغرت . عظمت أم هانت . ارتفعت الأسعار أم رخصت دب المرض وانتشر أم زال وانحسر ؟ كاد العدو ومكر أم هادن واستقر ، اغتنى العبد أو افتقر

قال عامر بن قيس رحمه الله : ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل اكتفيتُ بهنّ عن جميع الخلائق :

الآية الأولى [وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ]يونس١٠٧

والآية الثانية [وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ هود٦

والآية الثالثة {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فاطر٢

عباد الله :لا يحملنكم البلاءُ أن تشكوا في سَعَةِ رحمةِ الله، فالبلاءُ رحمةٌ من رحماته لو عَقَلَ الناسُ وفهِموا ما فيه من الرفعةِ والخير .

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقى الله تعالى وما عليه من خطيئة" , ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله ؛ فإنَّ ما عند الله لا ينال بمعصيته , ولا يحملنكم الغلاء على الضجر والتسخط ؛ فإن الله هو المسعر القابض الباسط , وهو القائل : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) , وهو القائل : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) .

فا تقوا الله – رحمكم الله – وعلقوا قلوبكم به تعالى , وفوضوا أموركم إليه , وابتغوا عند الله الرزق واعبدوه إليه ترجعون

بارك الله ...

الخطبة الثانية :

الحمد لله الولي الحميد , الفعال لما يريد , لا يكون في ملكه إلا ما يريد , أحمده سبحانه على كل حال , وأعوذ به من حال أهل النار , وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكبير المتعال , وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه خير صحب وآل .

أما بعد : فإنَّ تقوى الله وطاعته سبب عظيم لاستنزال رحمته , فاتقوه رحمكم الله , وتعرضوا لرحماته ومرضاته (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ...)

أيها المؤمنون : وإنَّ من أعظم ما تُستنزل به رحمة الله التوبةَ والاستغفار , قال تعالى : (لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون) فأكثروا من التوبة والاستغفار في كل وقت وآن , من الذنوب وسائر العصيان .

ومما تُستَنزل به رحمة الرحيم الرحمن الإحسان في العمل , والإحسان إلى الخلق (إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين)

ولا تغفلوا عن الصبر ؛ فما أعطي العبد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر ؛ فإنَّ الله يقول : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) , ولا شك أن الغلاء وارتفاع الأسعار وتغير أحوال المعيشة وتأخر القطر من جملة المصائب التي تواجه بالصبر

عباد الله : ولا تعجزوا عن حبل ممدود إلى السماء , فإنه سلاح مَضَّاء ؛ ألا وهو الدعاء , فإنه ينفع مما نزل ومما لم ينزل , فادفعوا قدر الله بقدره ؛ فلا يرد القدر إلا الدعاء , وتضرعوا إلى ربكم , وأظهروا له افتقارقكم ؛ فإنَّ باب الدعاء باب عظيم , فادعوا ربكم تضرعاً وخفية ؛ إنه لا يحب المعتدين , ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ؛ إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين واستقيموا على صراطه المستقيم .

وصلوا وسلموا ...